تلخيص لكتاب: الحاكمية

المؤلف: محمد أبو القاسم حاج حمد

اعداد: كوثر سويبقي

www.enjazzz.net

- الحاكمية الإلهية المباشرة

بينّ حاج حمد ان لهذه الحاكمية أربعة شروط وهي:

أولا: تولى الله سبحانه وتعالى بنفسه قيادة المجتمع والمسؤولية المباشرة عنه فلا وجود لنيابة، ولا ملك، ولا رئيس...بل هناك فقط أنبياء يأخذون بتعليماته اليومية وينفذونها. وبالتالي هناك سلطة مباشرة لله على الأرض من خلال أنبياء ينفذون هذه الأوامر بصفة يومية دائمة.

ثانيا: السيطرة على الطبيعة من خلال ممارسة خوارق العطاء بالهيمنة عليها، مثل فلق البحر، تظليلهم بالغمام عند سيرهم في الصحراء، إنزال المن والسلوى...

ثالثا: تحديد أرض مقدسة لهذه الحاكمية، وذلك بحكم والولاية المباشرة لله عليها، وعلى شعبها فلا تكون الحاكمية الإلهية الا في أرض مقدسة.

رابعا: مقابلة كل خطيئة بعقاب صارم وفق شرعة الاصر والأغلال، لأن الحاكمية الإلهية تكافؤ بين عطاء خارق وعقاب صارم. فمتى مارس الله هذه الحاكمية؟

والله تعالى مارس هذه الحاكمية بهذه الخصـــائص والمواصـــفات لمدة أربعة قرون "اذ هيمن على كل الأمور قطعيا وجبريا بإرادته المقدسة منذ أن أخرج بني إسرائيل من الأسر الفرعوني بعد أن صبّ عذاباته على فرعون وملإه" وهذا ما توضحه الكثير من الآيات القرآنية من مثل قوله تعالى :" فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ " (الأعراف: 133). فالله سبحانه وتعالى أخرج شعب بني إسرائيل المستضعفين (وهم أحفاد إبراهيم عليه السلام وابنه اسحق (إسرائيل) وأبوهم المباشر يعقوب – عليهم السلام أجمعين –)، بقوة خارقة للطبيعة، وذلك من خلال عصا موسى عليه السلام التي بضربة منها انفلق البحر، ثم أسكنهم أرضه المقدسة التي بارك فيه، ومارس فيها الحاكمية الإلهية المباشرة. مالمقصود بالحاكمية الإلهية المباشرة من خلال القرآن الكريم؟

- مفهوم الحاكمية الإلهية في القرآن: الحاكمية الإلهية "تعني حكم الله المباشر للناس دون استخلاف بشري، وهو حكم يتميّز بالهيمنة المباشرة على البشر وعلى الطبيعة في آن واحد، مع التصرف الإلهي فيهما (البشر والطبيعة) تصرّفا محسوسا وملموسا –من وراء حجاب– ولكن عبر حدثيّات منظورة. وهذا" كان جوهر العلاقة بين الله – سبحانه– والحالة التاريخية الإسرائيلية، وهي علاقة استوجبت قيام مملكة الله في الأرض، يدير شؤونها الله – سبحانه– بنفسه لا بمنطق الاستخلاف البشـــري عنه، ولهذا لقبت الأرض الذي أمر الله تعالى بني إســـرائيل بالاســـتقرار فيها الأرض

المقدسة. يقول تعالى مخاطبا موسى عليه السلام :" يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ" (المائدة:21).

وتجدر الإشارة هنا الي أن "تعلّق التجربة الإسرائيلية بحاكمية الله المباشرة هي التي قضت بتقديس الأرض وتفضيل الشعب، وليس ذلك رجوعا الي الخصائص الذاتية للأرض أو الشعب كما يتوهم البعض". وهذه الحاكمية تميّزت بالهيمنة الإلهية على الانسان والطبيعة في نفس الوقت، ويبرز ذلك في قوله تعالى :" وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ " (البقرة: 60)، وغيرها من الآيات. ولكن في مقابل هذا العطاء الخارق للطبيعة، نجد عقاب صارم للخطيئة وفق شرعة الإصر والأغلال، فإذا كان هناك انحراف ونقض للعهد والميثاق، يعاقبهم الله تعالى " بنفس موازين العطاء الخارق، أي العقاب المماثل الخارق". ونجد أمثلة كثيرة على ذلك مثل:

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿63﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿64﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿65﴾ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴿66﴾" (البقرة:63-66). وقد مارس الله –سبحانه– الهيمنة الطبيعية من خلال عصا موسى –عليه السلام– التي شقت البحر الي نصفين، وانبجاس الماء من الصخر وإنزال المن والسلوى وغيرها من الأمثلة...، اما الهيمنة على البشر كانت من خلال حكم الله المباشر عبر الأنبياء المتعاقبين الذين لا ينقطع توا صلهم ويحملون أوامره وتوجيهاته ونواهيه"، وهذا نجده في سورة البقرة الآية 87. كما أن الحاكمية الإلهية توفر الرغد من العيش الكريم إضافة الي العطاء الخارق "وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ " (البقرة: 58). وبالتالي فإن "الحاكمية الإلهية توفّر لشعبها المحكوم ما هو أكثر من ضرورات العيش، تماما كخارق العطاء الذي يتكافأ مع قيام الله –سبحانه– بالحكم المباشر وفق شريعة العهد".

لكن بعد قرون من بعثة موسى عليه السلام، تمرّد الإسرائيليون على هذه الحاكمية الإلهية من خلال طلبهم بتعيين ملكا يحكمهم بديلا عن "سلطة الأنبياء والربانيون والأحبار المتصلين بالله".

""أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ (البقرة : 246). ولعل طلبهم لتعيين ملكا منهم ليحكمهم كان نقطة تهولهم ومقدمة لخروجهم من الحاكمية الإلهية الي حاكمية الإستخلاف. فماهي خصائص هذه الحاكمية؟

- حاكمية الاستخلاف وخصائصها:

هذه الحاكمية كانت أيضا في بني إسرائيل (في عهدي داوود و سليمان عليهما السلام)، وارتبطت هذه الحاكمية "بشرائع الحاكمية الإلهية نفسها لكن في مقابل "التسخير" الذي شمل الطبيعة والكائنات المرئية كالطير، وغير المرئية كالجن، فالخلافة عن الله تستوجب مقومات مقابلة".

وهذه الحاكمية الا ستخلافية جاءت بعد تمرد بني إسرائيل ومطالبتهم بتعيين (ملكا) لهم من "النبي الذي كان يزاول الحاكمية الإلهية فيهم بتوجيه الله المبا شر، أي أنهم ردّوا اختيار الملك الي الله نفسه " ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله"، ولم يعرفوا وقتها أنهم يدخلون بذلك مرحلة "الخلافة" عن الله"، فاختار الله لهم طالوت ملكا ودفع بهم الي معركة دون خوارق حسية كما كان في فترة الحاكمية الإلهية المبا شرة. فالله تعالى ذهب "بهيمنته المبا شرة على الاذ سان والطبيعة والان يمارس الله دوره غيبّا، وقد و ضعهم في أق سى الحالات، يبتليهم بنهر يمنعهم من الـ شرب منه وهم في طريقهم الي قتال عدوّ شر سا، ومن قبل كان يُغرق عدوّهم –آل فرعون وجنوده– وهم ينظرون من بعد ـــــن انفلق لهم البحر". لكن الان وضـــع لهم الله اختبار كما منع عنهم المعجزات الحســـية التي ألفوها "، لكن فشـــل كثير منهم في هذا الاختبار الإلهي ولم يبقى منهم الا قلة صـــابرة حاربت مع طالوت وهزمت جنود جالوت، ثم ولّى الله تعالى طالوت ملكا. وهنا بدأت مرحلة حاكمية الاســـتخلاف "عن الله وباختيار الله وتســـميته لخليفته"، وهذه المرحلة حملت "بدايات التعلق الغيبي بالله وفعله خارج دائرة المحـ سو سات والمنظورات". وفي هذه النقطة تجدر الإشارة الي أن الحالة الإسرائيلية وقتها لم تكن "قابلة لأن تمضي في التعلق بالله غيبا كالحالة الإسلامية، ولذلك رُبط اختيار الملك بالتسمية الإلهية ضمانا لالتزام الله بالنصر، وارتهانا منهم لـ شكل من أ شكال الحاكمية الإلهية التي يتطلعون الي تدخلها المبا شر في المعركة ضد جالوت، لذلك صَعُب على الإسرائيليين أن يتفهموا كيف أن الله، وقد استجاب لمطلبهم في اختيار الملك الذي سيقودهم وتـ سميته، يمنعهم في الوقت ذاته من شرب الماء (الا من اغترف غرفة بيده)، ثم يـ ضعهم وهم قلّة عطشى بوجه جالوت وجنوده"... اذا هذه "كانت بداية الانتقال الإلهي ببني إسرائيل من الحاكمية الإلهية الي حاكمية الاســـتخلاف، بادئا معهم بدرس غيبي لا يطيقونه، فهم –أي الإســـرائيليون– اذا أرادوا التوفيق بين الحاكمية الإلهية وحكمهم لأنفسهم –"ابعث لنا ملكا"– فقد جرّدهم الله من خصائص الحاكمية الإلهية ولكنه – سبحانه– تفادى أن يهزموا وقد أوكل اليه اختيار الملك. ومن منطلق ما سبق فإن هذه المرحلة تعتبر مرحلة وسيطة بين "الحاكمية الإلهية" و"الحاكمية البشرية".

و" في ظل حاكمية الاســـتخلاف يظل الترشـــيد الإلهي قائما، وغالبا ما يجتمع المُلك مع النبوة"، وهذا الترشيد ليس مباشرا ولا يأخذ طابع المخاطبة والأوامر والتوجيهات عبر الفئة المصطفاة والمختارة من الأنبياء والرّبانيين المتعاقبين، بل يأخذ طابع " التفهيم والايحاء، أي الطابع غير المباشـــر"، كما أن هذه المرحلة شهدت تحول من "منطق الهيمنة الإلهية بالمعجزات الخارقة الي منطق التـ سخير الذي يعكس تفويـ ضا الهيا للإنـ سان في الـ سيطرة على الطبيعة والكائنات". وبالتالي فالخليفة في اطار هذه الحاكمية الا ستخلافية يكون مرتبطا بالله عن طريق الإيحاء والالهام الغير مبا شر، إ ضافة الي تـ سخير الله له

الطبيعة والكائنات الغير مرئية، ولعل هذا يتجلى مع داوود وسليمان عليهما السلام، وبالتالي " فالخلافة اختيار الهي مرتبط بترشيد الهي وتسخير الهي وليست مجرّد ممارسة سلطة دينية بموجب شرع الله وباختيار بشري"، ولعل خصائص هذه المرحلة يمكن استخلاصها من آيات كثيرة من مثل سورة سبأ :"وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿10﴾ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ۖ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿11﴾" (سبأ: 10–11) تعالى في سورة سبأ :"وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ۖ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿12﴾ (سبأ :12). كما نجد أمثلة أخرى في سورة ص (30–40)، وسورة النمل (15– 44)، وسورة الأنبياء (78–82).

فهذه الآيات تكشف وتبين المميزات والخصائص التي يتمتع بها ويكون عليها خليفة الله في الأرض، حيث " كل شيء مسخّر له، الطبيعة رهن أمره، الطير محشورة، ومنطق الطير معلوم، والجند من الجن والانس والطير محشورون، ولغة النمل معلومة، والريح مسخّرة غدوّها شهر ورواحها شهر، والحديد يلين، وتُسال عين القطر"..." واذا غمضت المسائل وارتبك الاجتهاد تدخّل الله –سبحانه– فأفهم سليمان حكم الغنم التي نفشت في حرث القوم، وحين يخطئ داود في الحكم يبعث الله اليه من يتسوّر المحراب ويراجع معه الحكم،... اذا فالاستخلاف عن الله ليس مجرّد سلطة سياسية ولكنه استخلاف كوني وهيمنة على البشر والطبيعة بتفويض الهي"، هذه هو معني "حاكمية الاستخلاف ومعنى أن يكون انسان ما خليفة عن الله في الأرض". ومع ذلك "فالخليفة عن الله بالخصائص المتعلقة به قوة وتسخيرا وتفويضا مع ذلك ليس معصوم عن الخطأ أو أقدر الكائنات البشرية، ولكنه الوحيد بوصفه الخليفة عن الله الذي يجب طاعته اذ إن صفته كخليفة هي اختيار ألهى، وهذا هو معني حاكمية الاستخلاف".

فما الفرق بين حاكمية الاستخلاف التي هي اختيار وتسخير ألهى وحاكمية الكتاب البشرية التي جاءت بعد هذه المرحلة؟

- حاكمية الكتاب البشرية وخصائصها:

في هذه الحاكمية المتأخرة تحول الخطاب الي خطاب عالمي لكل الناس، عوضـــا عن الخطاب القبلي، ليشمل هذا الخطاب المغاير كل الثقافات والحضارات، "وأصبح الكتاب بيد البشر يتناولونه بمنهج أخر فمن أخطأ له أجر ومن أصـــاب فله أجران". ويختلف مفهوم حاكمية الكتاب البشـــرية عن مفهوميّ الحاكمية الإلهية وحاكمية الاستخلاف، لأن المفهوم في هذه الحاكمية " يعود الي حاكمية الانسان خارج منهج الهيمنة الإلهية المباشرة على البشر والطبيعة (الحاكمية الإلهية)، وكذلك خارج منطق الاختيار الإلهي والتسخير (حاكمية الاستخلاف)". هذه المرحلة يتجلى فيها طابع التعلق الغيبي بالله فلا وجود لمعجزات حسية،" علّما بأنه كان على رأس هذه المرحلة خاتم المرسلين وامامهم جميعا، ويعيش القوم الضّنك فلا ريح غدوّها شهر ورواحها شهر، ويحصلون على سيوفهم ورماحهم بشقّ الأنفس، اذ لا عين قطر تُسال ولا حديد يُلانُ ولا جن تغوص وتسبك، فليس هنا مكان الحاكمية المستخلفة". وعليه

فقد تدرّج الله بالبشرية لتحكم نفسها وتلك غايته من الخلق، وهي غاية انتهى الله الي تأسيسها على يد خاتم النبيين وفي الأرض المحرمة وجعل لها القرآن العظيم منهجا". فماهي خصائص هذه الحاكمية؟

ان جوهر وأســـاس هذه الحاكمية هو "التعلق الغيبي بالله دون معجزات خارقة ودون تســـخير للإنس والجن والرياح"، فهي مرحلة "حيث يمارس الانسان مسؤوليته الوجودية بأقصى ما لديه من قدرات الوعي، سمعا وبصرا وفؤادا. هنا عليه أن يكتشف فعل الله في الوجود والحركة غيبا وخلافا لما كان عليه الأمر في إطار الحاكمية الإلهية وحاكمية الاســـتخلاص، وان يتفاعل مع فعل الله الغيبي، وان يدرك أبعاده وأن ينفذ الي ما ورائياته، فلا تكون العلاقة بالتشريع –مثلا– علاقة نصوص بل علاقة اكتشاف لما وراء النصوص، ولا تكون العلاقة بـ"قصص" الأنبياء علاقة مع مجرّد "سير ذاتية"، بل علاقة بما تتضمّنه هذه القصص وترمز اليه، ولا تكون العلاقة مع القرآن مجرد ترتيل لفظي، ولكن علاقة استيعاب لهذا الكتاب بوصفه منهجا للوعي المعادل موضوعيا للوجود الكوني وحركته، فيه ومن خلاله يلج الانسان آفاق المعرفة الكونية التي تهيّئه لممارسة حاكميّته في الأرض". فهذه العلاقة هي علاقة تفاعلية واستكشافية لما وراء السطور والما هو مكنون في أعماق هذا الوجود لاستخراج دُرره وجواهره من خلال تدبر ونظر عقلي واعي. ففي إطار هذه العلاقة الغيبية "أصبحت مدركات الانسان الموضوعية وقوى وعيه الذاتية هي دلالة حاكمية البشرية"، هذا من جهة، ومن جهة أخرى "بقدر ما حجبت المعجزات والتسخير الخارق تعاظمت مسؤولية الانسان الوجودية وفي كل الأبعاد، وتأكدت حريته في الاختيار ضمن المنهج القرآني الكوني الذي يتفتّح ويتكشّف عن متاحات معرفية ترقى الي ما وصل الينا بالقياس وما شابهه". فهذه المرحلة مثلت مرحلة "الانتقال من مدركات النظر والسمع الي مرحلة الحكمة التي تنفذ عبر الفهم الدقيق للعلاقات بين الأشـــياء، الي رؤية فعل الله في حركة الطبيعة والتاريخ فعلا غير مباشر ولكنه كامل التأثير". فمحمد –صلى الله عليه وسلم– أعطى النبوة والحكمة، كما أنه فاتح عهد العالمية التي ترث عنه الحكمة بشموليتها في المنهج الكوني عبر استمرارية التاريخ البشري"، وقد جاء "لينقل قومه من العقلية الاحيائية التعددية الي عقلية الإسلام الخاص، ولكن دون أن يجعل علاقتهم مع الله تتخذ شكل الآيات والخوارق المباشرة". وعليه فإن حاكمية الانسان البشرية تؤدي الي بناء الحضارة الكونية البديلة للحضارة المادية– ذات التوجه الأحادي والمهيمنة الان على الفكر الإنســـاني الكوني– وذلك بأبعادها الغيبية والإنســـانية والطبيعية، حيث لا يتحوّل الغيب الي "لاهوت" يستلب الانسان والطبيعة، ولا يتحوّل الانسان الي "وجودية عبثية إباحية فردية"، ولا تتحوّل الطبيعة الي "جبريّة مادية". فكلّ يتدامج في جدلية الغيب والانســـان والطبيعة". ومن خلال هذا النظر العقلي الواعي المتدبر في الكون والوجود "نرى آيات الله في أنفســـنا وفي الآفاق، مؤكدين وجود الله "الغيبي" في الفعل الإنساني وفي الحركة، دون حلوليّة في المكان، فقد تنزّه الله عن ذلك، ودون خارق معجزات فقد أغلقت مرحلة الحاكمية الإلهية، ودون تسخير خارق، فقد أغلقت مرحلة حاكمية الاستخلاف".